الحيوان العظام

يذلُّ الحيوان الاعجم للانسان لان الانسان أعقل منهُ

لولا العقول لكان ادنى ضيغم ادنى الى شرف من الانسان

ويرى الانسان نفسهُ صغيرًا بجانب الحيوانات الكبيرة القد الضخمة الجثة كالفيل والزرافة وفرس النهر والكركدن وما شاكل. فان متوسط طولهِ متر وسبعون سنتيمترًا ومتوسط ثقلهِ خمسة وسبعون كيلوغرامًا واما الفيل فطولهُ من طرف نابهِ الى طرف ذنبهِ نحو ثمانية امتار وعلوهُ نحو ثلثة امتار عادة وثقلهُ يزيد على ١٦٠٠ اقة . والكركدن طولهُ نحو اربعة امتار وعلوهُ نحو مترين وكذلك فرس النهر

النكل الاول الهدروسوريس

ولكنّ الحيوانات ألّتي نستعظمها اليوم من ذوات الاربع تُعدُّ صغيرة بالنسبة الى انواع من الزحافة ألّتي عاشت وانقرضت في الاحقاب الخالية ولم يبقَ منها غير آثارها وهياكلها ألّتي يجدها العلماء بين احافير اوربا واميركا . ولكي لا نطيل الكلام في هذه الزحافات نقتصر على ذكر فصيلة تعرف عند العلماء بالدينوسوريات اي الضباب الهائلة وقد سموها كذلك لمشابهتها للضباب . وقد وصفناها في الجزء الثاني من السنة الثامنة من المقتطف حيث قلنا :

" والدينوسوريات اي الضباب الهائلة الكبر انواع عديدة منها نوع كان جثتهُ وقوائمهُ كحجم

الفيل وقوائمهِ وشكلهُ كشكل فرس النهر وعلى قدميهِ براثن كبراثن بعض السلاحف ويداهُ دون رجليهِ ضخامةً وبراثنهما عقفاء كالكلاليب وطولهُ نحو ثلاثين قدماً على المزجح وطعامهُ النبات واسمهُ عند الافرنج إكْتِيُوذُون لمشابهة تخيلية بينهُ وبين حيوان مسمى بنحو هذا الاسم اليوم. ومنها حيوان سموهُ هدروسوروس يقينا رسم هيكلهِ في الصفحة السابقة عن وصفهِ فليتصور القارئ ان هيكلاً كهذا طولهُ ثمانٍ وعشرون قدماً قد اكتسى لحماً وجلداً مع سائر ما يتم بهِ البدن من الاحشاء والاوتار والاعصاب والاوردة والشرايين وليتخيل الحياة قد سرت فيهِ فحفزتهُ الى الحركة والنشاط فيعلم بعض ما كان عليهِ من ضخامة الجثة وهول المنظر وعظم القوة . وهو مع ذلك دون ما كان عليهِ غيرهُ من هذه الضباب الهائلة فقد وصف الاستاذ مارش حيواناً منها اسمهُ اتلنتوسوروس كان طولهُ نحو مئة قدم فهو اكبر ضب يعرف . وآخر اسمهُ برنتوسوروس كان طولهُ خمسين قدماً ورأسهُ على غاية الصغر بالقياس على بدنهِ وعنقهُ طويلة لدنة وجثتهُ قصيرة ورجلاهُ ضخمتين وكل عظامهما مصمتة ومسحة الرسميو في الارض مترّبة ربما وذنبه كبيراً . ولا يعرف حيوان اصغر منهُ رأساً بالقياس على بدنهِ فان جمجمتهُ اصغر من الفقرة الرابعة او الخامسة من فقرات عنقهِ واخف منها وزناً وثقلهُ في حياتهِ اكثر من ستة عشر الف اقة وكان يقتات بالنبات ويقطن الماء والياسة " . انتهى

اما اكبر الحيوانات التي تعيش في عصرنا فهي الحيتان[1] . وهي تقارب الضباب التي ذكرناها جسماً الاَّ انها احدث منها عهداً في الوجود . وكلها من ذوات الثدي وتتنفس الهواء كحيوانات البر وتلدها اربعة اقسام ودمها حار وتلد اولادها ولادة فلذلك كانت اقرب الى ذوات الاربع منها الى السمك . وكونها تشبه السمك صورة برهان على ان الاحياء تتشكل بالشكل الذي يلائم اوساطها

والذي يمعن النظر في اعضاء الحيتان يرى ان اصلها حيوانات برية لا مائية حتى ذهب بعضهم الى ان اصلها من ذوات الحافر غير ان اسنان الحيتان القديمة منها تشبه اسنان اكلة اللحوم لا اكلة النبات . وذهب عالم من علماء الحيوان الى ان الحيتان كانت تعيش في باديء امرها على سواحل الانهار ثم تشكلت بالشكل الذي يسهل العوم عليها . فلما اقتنت العوم والسباحة هاجرت الى البحر فكبر حجمها وشابه شكلها شكل السمك شيئاً فشيئاً . ودليلهُ على ذلك ان ما يعيش من انواع هذه الفصيلة في الماء العذب يشبه ذوات الثدي البرية اكثر

(١) الحيتان جمع حوت وهو في اللغة السمك مطلقاً . وهذا معناهُ عند اهالي مصر لكنهُ غلب على الحيوانات البحرية الكبيرة التي نحن بصددها

عمَّا تشبهها الانواع ٱلَّتي تعيش في الماء المالح فكانهُ حلقة تصل بين الحيتان الاصلية الارضيَّة وبين ٱلَّتي هاجرت منها الى البحر

قلنا ان الحيتان تشبه السمك في شكلها كما ترى في الشكل الثاني والثالث غير ان رأسها كبير بالقياس على بدنها ولاكثرها اسنان في الفك السفلي وعيونها صغيرة واذانها وراء عيونها وانوفها في قم رؤوسها ولا يكاد يكون لها اعناق لان فقراتها العنقية قد رقت كثيرًا حتى ان طول العنق لا يزيد على قدم واحدة في اكثر الحيتان . وللحوت طرفان امامیان يحتويان على جميع العظام والمفاصل ٱلَّتي تكون في الاطراف الامامية في ذوات الثدي من حيوانات اليابسة ولكنها متغيرة عنها في الشكل تغيرًا عظيمًا ولكل منهما خمس اصابع وقد يكون لهُ اربع فقط في بعض انواع الحيتان . واما الطرفان الخلفيان فلم يبقَ من آثارها غير عظيمات قليلة تحت القسم العجزي من السلسلة الفقرية . وليس للحيتان تراقي ولكن الواح كتفيها كبيرة جدًّا . وقد تقدَّم ان مناخرها في قم رؤوسها ولذلك كانت جماجمها مختلفة كثيرًا عن جماجم غيرها من ذوات الثدي في شكلها . والاثنى منها ثديان . والحيتان تسبح وتغوص وانواعها مفتوحة ولا تختنق خلافًا لغيرها من ذوات الثدي والسبب في ذلك ان حناجرها طويلة تصل الى فتحات مناخرها في مؤخر انواعها فيتصل منخرا كل حوت برئتيهِ بواسطة انبوبة غير مفتوحة في القصبة فاذا فتح فاهُ وملأهُ ماء لم يجد هذا الماء منفذًا في قصبتهِ حتى ينزل منهُ الى رئتيهِ

ويتوهم العامَّة ان الحيتان اذا صعدت الى سطح البحر لتتنفس قذفت الماء من جوفها صعدًا في الهواء . والصواب ان الحوت يغوص في الماء مدة من الزمن ثم يصعد الى سطحهِ ليتنفس الهواء فيبتدئ نفسهُ بالزفير اي باخراج الهواء من رئتيهِ فيدفعهُ منهما بزخم شديد ويكون هذا الهواء مشبعًا بخارًا مائيًّا على درجة عالية من الحرارة فحتى صعد في الهواء ولامس ما هو ابرد منهُ تكاثف البخار المائي الذي فيهِ واشبه عمودًا من الضباب او الزبد المتطاير في الهواء . وكثيرًا ما يبتدئ الحوت بالتنفس قبلما يخرج منخريهِ من الماء فيحمل نفسهُ بعض الماء ويذهب بهِ صعدًا في الهواء

وغنيٌّ عن البيان ان مراقبة الحيتان العظام غير يسيرة لانها تقطن الاعماق وقلما يتيسر للعلماء رؤية ما يقذفهُ البحر منها على شاطئهِ والقليل الذي يرونهُ تكون جثتهُ في الغالب مشوهة او متغيرة عن اصلها . وكل ما يعلم عن الحيتان العظام وعوائدها وطبائعها منقول عن مجبي البحث والمراقبة من الذين يتاجرون بها . وهؤلاء علموا عنها شيئًا وغابت عنهم اشياء

والحيتان تعيش في كل البحور من خط الاستواء إلى حد المنطقة القطبية . وكثير من

انواعها الصغيرة مثل الدلفين او النحس تصعد في بصبات الانهار مسافات متفاوتة وبعضها لا يعيش في غير الانهار . وكلها تقتات بالحوم ما عدا نوعاً من النحس اكتشفوهُ حديثاً في انهار بلاد كمرون في سواحل افريقية الغربية والمظنون انهُ يقتات بالنبات لا بلحم الحيوانات . اما الحيوانات التي تقتات الحيتان بها فكثيرة الانواع جدًّا ولا نسبة بينها وبين ما يأكلها من الحيتان في كبر حجمها فالحوت الكريتلندي وهو من اكبر الحيتان حجماً لا يأكل الاَّ حيوانات صغيرة جدًّا حتى قيل انهُ لو بلع سمكة صغيرة لمات مختنقاً بها واما الحوت المعروف بالقتال وهو ليس من الحيتان الكبيرة فيأكل النعمة والحيتان الصغيرة . واكثر الحيتان حيوانات مسالمة تفرُّ مما يطاردها ولا تؤذي ما عدا الحوت القتال المذكور آنفاً فانهُ شرس لا يؤمن شرهُ . وهي تسير في الماء امراباً وقد يجتمع في السرب الواحد ألوف منها تأتلف وتحب

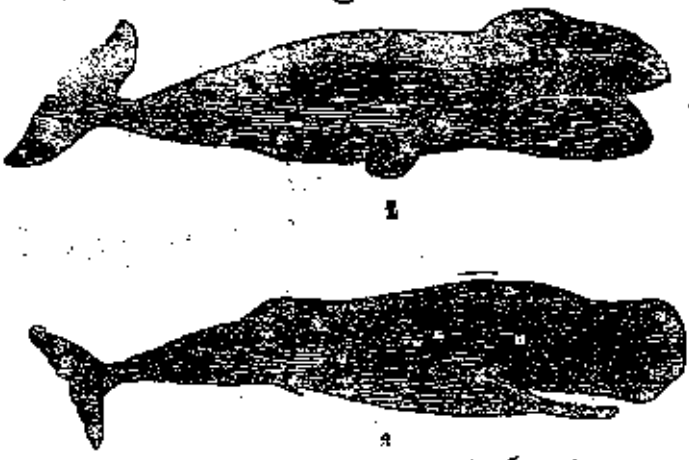

(٢) الحوت الكريتلندي (٣) الحوت السبرمتيتي

بعضها بعضاً حب الاخوة و يروي صيادوها القصص والنوادر الكثيرة عن حب اناثها لصغارها وعنايتها بها وحنوها عليها

وتقسم الحيتان كلها قسمين عظيمين البالينات او ذوات عظم الحوت المعروف بالبالين وهو ينوب مناب الاسنان فيها وهذه هي الحيتان الصحيحة . وذوات الاسنان . غير ان بعض العلماء يرى ان ذوات الاسنان نشأت من اصل غير اصل ذوات عظم الحوت وان القسمين من قبيلتين مختلفتين وليسا قبيلة واحدة

اما البالينات او الحيتان الصحيحة فاشهر مميزاتها خلوُّ افواهها من الاسنان بعد ما تولد وطلوع عظم الحوت او البالين مكانهُ وهذا العظم عبارة عن صفائح قرنية مسطحة مختلفة الشكل

مدلاة من سقف الفم ويختلف طولها باختلاف نوع البال او الحوت الذي تكون فيه وهي ملساء من اطارج مهذبة الحروف من الداخل بحيث يظهر كأن فم البال ممتلئ شعرًا لمن ينظر اليه من الاسفل والغرض من هذا العظم تصفية الماء عن الحيوانات الصغيرة والهلاميات التي تكون فيه ثم يبلعها الحوت وكيفية ذلك ان الحوت يفتح فاهُ الكبير فيمتلئ ماء وما فيه من الحيوانات الكثيرة الصغيرة . ثم يغلق فاهُ فيجري الماء بين تلك الصفائح القرنية ويخرج من بين شفتيه وتبقى الحيوانات بين الصفائح فيلتهمها

ومن اشهر انواع الباليات الحوت الكريلندي (شكل ٢) واخص صفاته كبر رأسه حتى يبلغ ثلث طوله وتقوس فمه وكثرة صفائح البالين فيه وطولها فانها قد تزيد عن ٣٨٠ صفيحة على كل جانب من فكه ويبلغ طول التي في اواسط فمه منها عشر اقدام او اثنتي عشرة قدمًا ولونهُ اسود مع بياض في عنقه وزعانفه ولهُ ندبة على طرف خيشومه وطولهُ من ٥٠ الى ٦٠ قدمًا وهو يعيش في الجهات القطبية بين درجة ٨٢ من العرض شمالي ودرجة ٥٥ جنوبًا وطعامهُ الاسماك القشرية والهلامية ويطفو قريبًا من سطح الماء وهو يأكلها ويعيش وحدهُ احيانًا ويجتمع اسرابًا احيانًا أخرى . وينوص نحو ربع ساعة تحت الماء ثم يطفو ليتنفس وقال بعضهم ان حوتًا رمي بحربة فغاص نحو ٥٩ دقيقة تحت الماء . وانثاهُ تلد في اشهر الربيع حوتًا واحدًا وترضعهُ مدة سنة ويبقى البالين في فمه مدة الرضاع وهي تحب ابنها حبًّا شديدًا ويتعلق ابنها بها شديدًا ايضًا فاذا صادها الصيادون صادوا ابنها معها بلا عناء ولا مشقة

اما صيد الحوت الكريلندي فلدهنه وبالينه فانهم يستخرجون ١٣٠ برميلاً من الدهن من الحوت الواحد عادة وقد استخرجوا ٢٨٠ برميلاً من بعض الحيتان ويستخرجون منهُ من الف الى ثلثة آلاف رطل مصري من البالين ولا يخاف الصيادون شرًّا من هذا الحوت لانهُ جبان لا يهجم على صيادهِ ولكنهُ ينوص الى اعماق اللجج اذا جرح ويخشى ان يجر قارب الصيادين اليها معهُ . ومعدل سرعة هذا الحوت اربعة اميال في الساعة واما اذا جرح او ذعر فيقطع نحو ثمانية اميال في الساعة . وصيدهُ قديم وقد اصطاد الانكليز وحدهم نحو ٨ آلاف و٤٠٠ حوت من سنة ١٧٩٠ الى سنة ١٨٧٩ ولذلك اشتدَّ حذر هذه الحيتان من الصيادين حتى صارت لا تمكنهم من الدنو اليها

وكان الناس يصيدونها قبلاً في زوارق مكشوفة فيرمونها بحراب كبيرة مربوطة بحبال متينة فمتى نشبت بها طعنوها حتى تموت . وكيفية ذلك انهُ اذا رأى الناظر حوتًا عن راس سارية نادى الرجال فدلوا القوارب وجذفوا اليه حتى اذا قرب منهُ قارب رماهُ احد الرماة

بحربته وجذف الباقون الى الوراء فرارًا منهُ . فيغوص الحوت بسرعة فائقة حتى روّي انهُ غاص عموديًّا فصدمت جمجمتهُ قعر البحر على عمق ٨٠٠ يرد فتكسرت . والغالب انهُ يسبح الى قطعة جليد من القطع التي تطفو على الماء في تلك الجهات والحربة في بدنهِ فيسحب الحبل الذي تكون مربوطة بها سحبًا شديدًا حتى يحترق اذا لم يكن مبتلًّا من تركهِ على جوانب القارب . والمعتاد ان يكون طول هذا الحبل اربعة آلاف قدم وقد يفرُّ الحوت والحربة في بدنهِ ثلثة اضعاف هذه المسافة وربما ضرب القارب بذنبهِ الذي يكون طولهُ ٥ اقدام وسمكًا وعرضهُ ٢٠ او ٢٥ قدمًا فيقلبهُ بمن فيهِ وبعد ما يغوص مدة قارًّا يصعد الى وجه الماء ليتنفس فيرميهِ الصيادون بالحراب حتى يقتلوهُ ويجروهُ الى السفينة حيث يجردون الدهن عنهُ ويأخذون الصفائح التي فيهِ ويطرحوا الباقي لسمك البحر . ويرى القارىء صورة هذا الصيد من الشكل الرابع

ثم انهم تفننوا في صيدهِ فصنعوا مدافع تطلق بها الحراب على الحيتان فترمى عن بعد فيرميها بها الصيادون . واما الآن فقد اخترعوا مدافع كبيرة متقنة الصنع لاطلاق الحراب فيركّب المدفع في مقدمة البواخر نفسها وتطارد البواخر الحيتان حتى تدنو منها ويقف الرامي وراء المدفع ويصوّبهُ الى الحوت ويطلق منهُ حربة معها صنانير متحركة وفي راسها مادة متفرقعة تنشب الحربة وصنانيرها بالحوت وتتفرقع المادة حتى اذا اصابت مقتلًا منهُ قتلتهُ في الحال ووفّت الصيادين شرَّ غوصهِ وسرعة سيرهِ

ومن اشهر انواع الحيتان ذات البالين ايضًا الحيتان الزعنفية الظهر وهي دون الحوت الكريتلدي في دهنها و بالينها ولذلك لم يعبأ الصيادون بصيدها الّا بعد ما تلّ عليهم الحوت الكريتلدي وهي تقطن كل البحار ما عدا بحار المنطقتين القطبيتين وتتغذى بالاسماك وذوات القشور وطول بعض انواعها من ٧٠ الى ٨٠ قدمًا وقد تبلغ ٨٥ قدمًا او اكثر وطول راسها ربع طولها او خمسهُ ولها زعنفة صغيرة في ظهرها على بعد ثلثي المسافة من راسها الى ذنبها . فاذا قذف البحر حوتًا منها على ساحل بيروت ورآهُ فكان كالمركب الكبير تتلاطم الامواج عن جانبيهِ . وقذف حوتًا آخر على ساحل مدينة صور ولا تزال عظام احدهما محفوظة في المتنزه الكلية السورية الانجيلية ببيروت

وهذا النوع هو اكبر الحيتان كلها مدًّا واسرعها سيرًا ولقوتهِ ينشب على وجه الماء احيانًا فيرى الناظر طولهُ كلهُ وحتى تنفس صعد نفسهُ في الجو الى علو عظيم فيستدلّ الناظر عليهِ عن بعد من رؤية نفسهِ وحتى دار ليغوص يرفع ذنبهُ الطائل الثقل في الهواء ثم يشق بهِ الماء بقوة

لا يهد لها مثيل في غيرها من الحيوانات. وقد سهل صيدهُ وقلَّت اخطارهُ منذ اخترعوا المدافع التي تطلق الحربة ذات المواد المتفرقعة كما ذكرنا آنفاً.

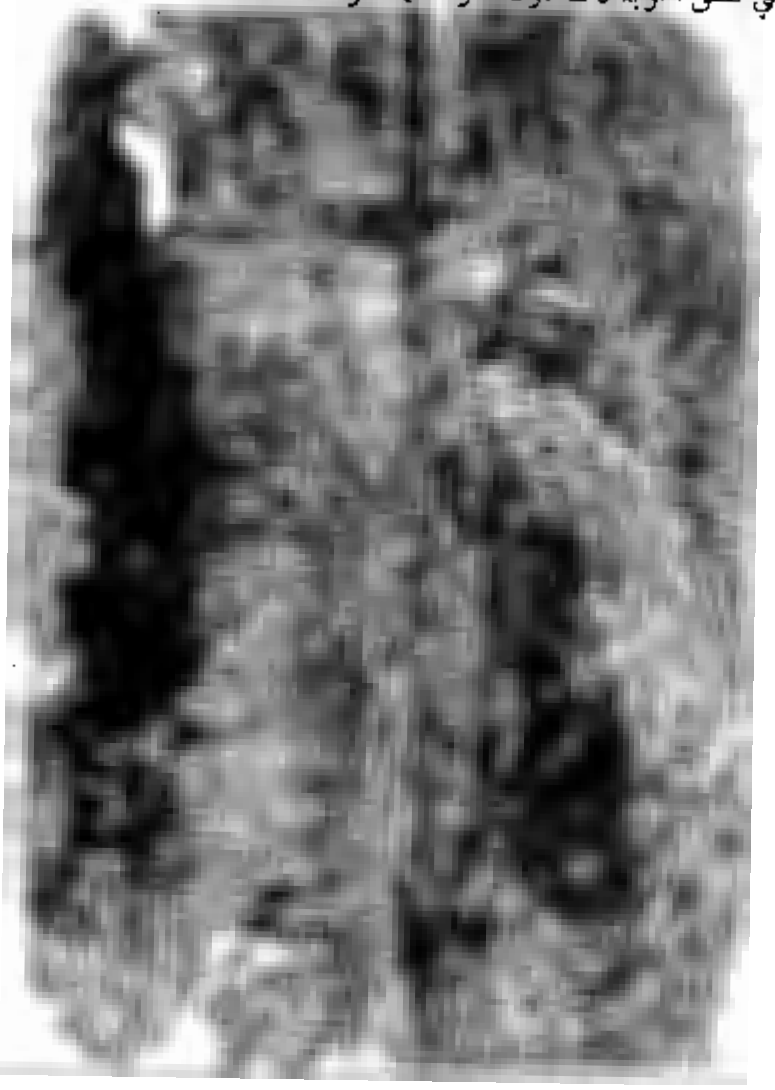

الشكل الرابع صيد الكوت

اما الحيتان ذوات الاسنان فاشهرها وانفعها للانسان الحوت المعروف عند الفرنسويين بالكشلو (شكل ٣) وهو الذي يستخرج منهُ معظم السمك يبلغ طولهُ من ٥٥ الى ٦٠ قدماً واما اتلافهُ فلا تزيد عن نصف هذا الطول وهي ادق منهُ جثة. ولهُ اسنان طويلة في فكهِ

السفلي واما تكتهُ العلوي فليس فيهِ الاَّ آثار الاسنان . ولسانهُ وباطن فمهِ ابيضان لامعان وعينهُ فوق زاوية فمهِ ووراءها ثقب صغير جدًّا هو اذنهُ وليس لهُ زعنفة في ظهرهِ ولون ظهرهِ اسود او اسمر ولون صدرهِ وبطنهِ اغبر وهو يقطن البحور العظام و يجتمع اسرابًا من الذكور والاناث المختلفة الاعمار يسير في مقدمة السرب منها خلان او ثلثة من الحيتان الكبار والاناث تدافع عن صغارها وعن بعضها البعض فاذا قتل الصيادون انثى منها سهل عليهم اصطياد عدة غيرها . وهذه الحيتان تلعب في الماء فتقفز من الماء قفزتين او ثلاثًا فيرى الناظر عن السارية اثرها في الماء على بعد ستة اميال منهُ . واذا زعرت غاصت سريعًا الى القعر ولو كانت مضطجعة اتقيًا على بطونها . وطعامها الحيوانات الفلامية والاسماك الصغيرة و يقال ان هذا الحوت يفتح فاهُ الابيض في وسط الماء فمتى رأت الاسماك بياضهُ الناصع جاءت اليهِ فيلتقطها و يلتهمها ولكن هذا القول لم يثبت بدليل

ويحيط بهذا الحوت طبقة دهنية سميكة يستخرج منها ثمانون برميلاً من الزيت اذا كان كبيرًا . وفي رأسهِ تجويف فيهِ مادة زيتية تغرف منهُ وتجمد حتى عرفت للهواء وتعرف بمن السمك . اما زيتهُ فاحسن من دهن الحيتان السابق ذكرها واما منُّ السمك فيستعمل لصنع الشمع وغيرهِ . و يتكون في امعائهِ جسم عطر يعرف بالعنبر و يلتقط طافيًا على وجه الماء لا من امعائهِ عادةً

ويروى عن صيد هذا الحوت واخطارهِ نوادر كثيرة يتصوَّرها القارئ مما ذكرناهُ عن صيدها آنفًا و يضيق المقام عنها فنقتصر على ذكر نادرة رواها الدكتور طمسن في مصنف لهُ عن تاريخ زيلندا الجديدة قال : —

رأى الصيادون صبيحة يوم حوتًا على وجه ماء الخيط فقذفوا اليهِ في قاربهم وتناول صيادٌ من اهل نيوزيلندا حربتهُ ورماهُ بها فاخطاهُ وفرَّ الحوت تتبعهُ ساعات في حر الشمس المحرقة حتى دنوا منهُ فرماهُ فاخطأهُ ثانية فصاح بهِ رفاقهُ يسبونهُ و يلعنونهُ ثم دنوا من الحوت ثالثة فما كان من الرجل الاَّ ان وثب من القارب وركب على ظهر الحوت ولم يكن الاَّ كلمح البصر حتى غاب الحوت والرجل عن الابصار وكثر الزبد وتلاطم الامواج وسار القارب بالصيادين ولم يروا الاَّ الماء يدور ملطخًا بالدماء ثم ابصروا شبحًا اسود يموج وشعروا بجيل الحربة يشتد والقارب يسير وهو يشق الماء شقًا والحوت يجري بهِ وقد نشبت حربة الرجل في بدنهِ ورجع الرجل الى مكانهِ في القارب ولم يكن احد يصدق انهُ يعود اليهِ سالمًا . انتهى